الفارابي

أحوال العصر العامة — حياته وأخلاقه —

كتبه ، أسلوبه ، قيمة كتاباته

لاديب عباسي

أحوال العصر

عاش الفارابي في القرن الرابع الهجري ، وهو عصر لا تميّزه من الوجهة السياسية ما تزة ، فهو حلقة من تلك السلسلة الواهنة من تاريخ الاسلام التي يمسك طرفها الواحد الخليفة المتوكل وطرفها الآخر هولاكو . غير انهُ لابدَّ من الاشارة الى ان هذا الوهن كان على اشدّه في هذه الفترة من تاريخ الاسلام . وقد تألّبت شتى العناصر على إحداث هذا الوهن والاضطراب . فالخليفة امسى ولا شأن لهُ في الخلافة الاَّ شرف الانتساب اليها ، ونيط به بدل شؤون الخلافة الخطيرة يديرها ، تصدُّر الاحتفالات والقيام بالصلوات وخلافها من الشؤون الثانوية . ولم تأت سنة ثلاثمائة واربع وثلاثين حتى كان ضعف الخلفاء قد بلغ مداه الأبعد ، فتمّ لآل بويه ان يؤسسوا في بغداد ملكاً لهم منهُ جسمهُ والخليفة رسمه فقط . ثم لقد كان القرن الرابع الهجري قرن ظفر للروم بينما كانت الدول الاسلامية تمزقها مطامع الأمراء والقوّاد فكان هذا — مضافاً الى ضعف الخلفاء — من أدعى الاسباب في تقويض بنيان الامبراطورية الاسلامية . ومما يزيد الباحث شعوراً بفساد الحياة السياسية اذ ذاك هذه الجمعيات الهدّامة التي امتدَّ شرُّها الى اكثر انحاء العالم الاسلامي ، كالاسماعيلية والحشاشين والقرامطة ، خصوصاً هؤلاء الاخيرين الذين ظلوا زهاء قرن ينشرون الرعب والتدمير اينما حلّوا وحيثما توجهوا

وفي الناحية الاقتصادية يلحظ المتتبع لاحوال العصر مثل ما يلحظهُ في الناحية السياسية ، وهناً على وهن وسوءاً الى سوء . ولا عجب ان تكون هذه حال العصر ، فالامن غدا والعدم سواء لذهاب هيبة الحكومة وانصراف اولي الشأن الى قمع الفتن ومشاغلة شتى الخصوم في الداخل . والسلم لم يكن اسعد حالاً ، فان هذا العصر — كما اسلفنا — كان عصر ظفر للروم ، كثرت فيه مغازي الافرنج وغاراتهم على البلاد الاسلامية مما لم يدع للسلم سبيلاً . والعدل كذلك آل الى اسوأ الدرك لاستبداد الامراء بالأمر دون الخلفاء واسرافهم في تحميل العامّة ما لا قبل لهم به . كل هذا وخلافه قسّم المجتمع الاسلامي الى قسمين : قسم تكاد تقتله التخمة وقسم تكاد تفنيه المجاعات . ومما زاد

انشؤون الاقتصادية سوءاً ما حدث من انسلاخ كثير من الولايات من جسم الامبراطورية الاسلامية فقلّت بذلك موارد الخزينة وصغرت الخلفاء والامراء ، مما دفع المعتضد الى فرض الضرائب الباهظة على الفلاحين مما ثقل كاهلهم ودفع بالكثيرين منهم الى احضان الثورة على الحاكمين . وفي رأي كثيرين من المؤرخين ان ثورة القرامطة كانت ثورة اقتصادية قبل ان تكون شيئاً آخر . ويؤيد هذا الرأي ان السواد الاعظم من القرامطة كانوا من فلاحي العراق الذين ارهقهم عسف الحكام واضطرهم الى الثورة وانتشار الجذام

وامتدّ الفساد في نواحٍ اخرى من شؤون الاجتماع، ولم يسلم على هذا الفساد الناحية العقلية، على الرغم مما كان من اغراء شديد بالفلاسفة والمفكرين ، وظلّ درس الفلسفة في بغداد والبصرة وخلافهما من الحواضر الاسلامية حيّاً نامياً يؤتي اكله الشهي الطيب بعد الحين

واهم مصادر الفكر الاسلامي في هذا العصر كانت الافلاطونية الحديثة والفلسفة الفيثاغورية ومذهب وحدة الكون (الپانتيزم) وفلسفة افلاطون وارسطو والرواقية واليهودية والمسيحية وغيرها من المذاهب الشرقية . واشهر من تأثر بهذه المذاهب الفلسفية والدينية هم الشيعة ومن جرى مجراهم كالاسماعيلية والقرامطة والحشاشين واخوان الصفا . فنظرية الحلول عند الشيعة ومن ذهب مذهبهم مقتبسة من الافلاطونية الحديثة لتفسير نظرية الامام المنتظر، وفلسفة فيثاغورس تشتمل القسم الاول من رسائل اخوان الصفا ، وارسطو يشغل قسماً آخر منها ، والمدينة الفاضلة للفارابي تأثّر بها مؤلفها بعض الشيء جمهورية افلاطون ، ومذهب وحدة الكون يظهر في آثار الفارابي اجمالاً وفي شطر كبير من رسائل اخوان الصفا وفي مذاهب الاسماعيلية والفاطميين والحشاشين

وقد امتاز هذا العصر عن غيره ظاهرتان طاستان كل العموم، وهما شيوع الجمعيات السرية الفلسفية وذيوع النزعة « الانسكلوپيدية » بين المفكرين . فمؤلفات الفارابي وابن سينا واخوان الصفا ، والجمعيات الفلسفية والفلسفية السياسية كجمعيات اخوان الصفا والاسماعيلية والحشاشين هي اوضح دليل على تفشي هاتين النزعتين وتمكنهما من نفوس القوم يومئذٍ . وذلك — في رأينا — ناشئ من التضييق على الفلسفة اشدّ التضييق حتى اضحت كتبها من الندرة بحيث لا تطولها ايدي جميع الراغبين فيها ، فقام الفارابي وابن سينا واخوان الصفا وامثالهم وجمعوا الناس اشتات العلوم والمعارف على نحو قريب من دوائر المعارف والموسوعات الحديثة ، فسدّوا بذلك حاجة العصر وسهّلوا على الدارسين دراسة الفلسفة والعلوم والفنون . ولم يستطع الفلاسفة والجامعون أن يقوموا باعمالهم من دراسة وجمع وتأليف الا بالتكتم الشديد ، فنشأت هذه الجمعيات السرية التي نقرأ اخبارها معجبين بما كانت تصرفه من جهد وتبذله من اخلاص في دراسة الفلسفة وتيسيرها للدارسين

في مثل هذه البيئة الاجتماعية والفكرية نشأ الفارابي . وسوف نرى عند تحليل فلسفة الفارابي ان قد كان لعناصر هذه البيئة آثار ملحوظة في فلسفته وفي نسق تفكيره

حياة الفارابي و خلاقه

هو ابو نصر محمد بن اوزلغ بن طرخان من مدينة فاراب . ولد في عائلة تركية واخر القرن التاسع الميلادي في بلدة واصجي من اعمال فاراب ، وهي ولاية تركية في خراسان . ويقال ان والده كان قائداً من قواد الجيش . والراجح انهُ من عائلة تركية مع ان كثيراً من المؤرخين يلحقونهُ بالامة الفارسية

والفارابي — ككثير من العصاميين — لايعرف تاريخ ولادته بالضبط ولا الاحوال التي مرّت عليهِ في طفولته وشبابه . وقد تُوفي عن ثمانين سنة او ما هو دونها (سنة ٩٥٠ ميلادية) ويدلك على انهُ بلغ هذا العمر او ما يقاربهُ ان تلميذه ابا زكريا يحيى توفي عام ٩٧١ ميلادية عن ٨١ سنة اي ان الفارابي حينما توفي كان عمر تلميذه نحو ستين سنة . وهذا يعني — في الراجح — ان الفارابي كان اكبر منهُ بعشرين سنة . وهي نسبة معقولة بين سن المعلم وتلميذه . على ان هذا لا يعدو باب الترجيح والاحتمال ، اذ ليس بعيداً ان يكون الفارابي وتلميذه من سن واحدة

والذي يعلم علم اليقين من حياة الفارابي انه رحل في صباه عن مسقط رأسه الى بغداد ، مدينة العلم والنور اذ ذاك ، ودرس فيها على الطبيب يوحنا بن حيلان . واشتغل تعليمه هناك على الادب والرياضيات واللغات . وقد نسب اليهِ اهل زمانه الالمام بجميع لغات العالم ، على انهُ لم يتم على هذا الزعم دليل . بيد انهُ يتضح من كتبه انهُ كان يعرف التركية جيداً ويعرف اليونانية بعض المعرفة . وقبل ان يدرس الفارابي على يوحنا بن حيلان كان قد تتلمذ لابي بشر يونس الحكيم المشهور ، وهو شيخ كبير . وكان الناس يقرأون على هذا الاخير كتب ارسطو في المنطق ويستملونه شروحه عليها . ذلك انهُ كان يستعمل في تصانيفه وطريقة شرحه ، البسط والتدليل حتى قال بعض علماء هذا الفن : « ما أرى ابا نصر الفارابي اخذ طريق تفهيم المعاني الجزلة بالالفاظ السهلة الا من ابي بشر » . وكان الفارابي يجتمع ايضاً بأبي بكر السراج في بغداد ، فيقرأ عليهِ المنطق . ويقال ان كتاب النفس لأرسطو وجد وعليهِ بخط الفارابي « اني قرأت هذا الكتاب مائة مرة » . ونقل عن الفارابي ايضاً قوله : « قرأت السماع الطبيعي لأرسطو الحكيم اربعين مرة واري اني محتاج الى معاودة قراءته » ويروى عنهُ انهُ سئل : من اعلم انت ام ارسطو ؟ فأجاب : لو ادركته لكنت اكبر تلاميذه . يريد انهُ كان لا يفارقه ولا يرى انهُ يستطيع الاستغناء عنه مهما تقدمت بهِ سنه ومهما علمه

ولم يزل ابو نصر في بغداد مكبّاً على الدرس والتحصيل الى ان برّز في جميع العلوم . وفي بغداد الّف معظم كتبه ، واكثرها شرحٌ لكتب ارسطو . ومن هنا دعاه العرب المعلم الثاني

ثم انتقل الفارابي من بغداد الى حلب لفتنة حدثت هناك ، والحقه سيف الدولة برهط الادباء والفلاسفة الذين كانوا ينوّرون بلاطه ويكسبون مجتمعات القصر حللاً زاهية من مختار القول ومصطفى

التفكر ، وظنَّ يعيش هناك عيشة الزهد والتقشف الى ان وافاه اجله المحتوم في دمشق . وقد مكث الفارابي بقية حياته في حلب مكرَّماً معزَّزاً . وذلك ان سيف الدولة كان الى اجلاله للعلم وحدبه على الأدب شيعيًّا كالفارابي الذي كان شيعيًّا ايضاً . ويدلك على مكانة الفارابي عند الامير انهُ لما توفي قام سيف الدولة في مسوح الصوف خطيباً على منبره

ويؤثر عن الفارابي الهدوء والانصراف الشديد الى العلم دون غيره من شهوات النفس . ويذكر المؤرخون انهُ لم يكن يتناول من سيف الدولة الا اربعة دراهم في اليوم ، وهذا لم يكن شحًّا من سيف الدولة انما كان استجابة رغبة الفارابي نفسه عن اعراض الدنيا . ولم يكن الفارابي يعتني بهيئته ، وكان لباسه لباس الصوفية الخشن . ويدلُّك على عفة الفارابي عما يتهالك عليه الناس من حطام الدنيا واعراضها أبيات أثبتها له ابن أصيبعة قال فيها :

لما رأيت الزمان نكساً ... وليس في الصحبة انتفاع
لزمت بيتي وصنت عرضاً ... له من العزَّة اقتناع
اشرب مما اقتنيت راحاً ... لها على راحتي شعاع
واجتني من حديث قوم ... قد اقفرت منهم البقاع

وقد اورد له المؤرخون غير هذا المقطع من الشعر ، وكلها على العموم ، لا تنطوي على كبير شاعرية الا انها في معظم الاحوال ناطقة بمتانة خلقه وسمو نفسه

وروي عن الفارابي اخبار كثيرة أحقُّ بالخرافة منها بالواقع : منها انهُ حضر ذات يوم مجلساً لسيف الدولة ولعب على آلة موسيقية معه ، فبكى كل الحاضرين . ثم فكها ولعب عليها لحناً آخر فضحك جميع الحاضرين . ثم فكها وركبها من جديد ولعب عليها لحناً ثالث ، فقام عليهِ الجميع

كتب الفارابي

﴿ أسلوبه — قيمة كتاباته ﴾ الكتب التي ألفها الفارابي تربي على المائة كتاب . والترتيب التاريخي الذي تعاقبت عليهِ هذه الكتب غير معروف تماماً . ولكن الراجح ان كتبه التي كتبها وهو تحت تأثير المتكلمين « Dialectics » والطبيعيين « Naturalists » من الفلاسفة كانت اسبق كتبه الى الظهور . أما كتبه التي يظهر فيها نضوج الفكر فيرجح انها كتبت في زمن متأخر ، وهي الكتب التي لقب من أجلها بالمعلم الثاني ، وجلها شروح لمنطق ارسطو وفلسفته في السياسة وما وراء الطبيعة . وكتبه ، على العموم ، تقع في ثلاثة أقسام : الكتب المنطقية ، وكتب ما وراء الطبيعة ، وكتب الفلسفة العملية — أي فلسفة الأخلاق والسياسة . واكثرها محفوظ في المكاتب الاوربية . ومن هذه الكتب المطبوع باللغات الافرنجية ومنها المطبوع باللغة العربية ، ومنها

لا يزال مخطوطاً . ومن أشهر كتبه ما يلي :

١ — التوفيق بين رأيي الحكيمين ، أفلاطون و ارسطو

٢ — فيما ينبغي الاطلاع عليه قبل قراءة فلسفة ارسطو

٣ — رسالة في ماهية الروح

٤ — آراء أهل المدينة الفاضلة

٥ — رسالة في المنطق (خطية) في اوربا

٦ — رسالة في القياس

٧ — احصاء العلوم (خطية)

٨ — السياسة المدنية

٩ — مجموعات كتب في موضوعات متفرقة

ومن اهم ما صنّفهُ الفارابي ويذكر له مع الشكر والتقدير كتابهُ في احصاء العلوم والتعريف باغراضها وقد قسّم الفارابي العلوم في هذا الكتاب المختصر الى ستة فروع : ١ — علوم اللغة : ٢ — علم المنطق : ٣ — الرياضيات : ٤ — العلوم الطبيعية : ٥ — العلوم المدنية : ٦ — علم الكلام وما وراء الطبيعة . وهذا التقسيم قريب من التصنيف الحديث للعلوم والفنون

ويذكر المرحوم جرجي زيدان ان الفارابي كتب كتاباً في الاقتصاد السياسي سبق فيه جميع علماء الغرب الى هذا البحث الجليل

***

هـذا من حيث مادة الكتب التي صنفها الفارابي ، اما اسلوبه فيعتوره شيء من التناقض والارتباك في كثير من الاحيان . على ان عبارته عربية لا غبار عليها ، انما يؤخذ عليه كثرة الترادف المعنوي مما ينأى به احياناً كثيرة عن الدقة الفلسفية ويحمله على التوسّع في المعاني . ومن خصائص اسلوب الفارابي ايضاً طول العبارة وكثرة المعترضات . على ان هذا ليس مما انفرد به الفارابي دون غيره من الفلاسفة . والواقع ان طول الجملة وكثرة الاعتراض ضرورتان تلازمان الكتابات الفلسفية والعلمية في اللغة العربية واللغات الاجنبية على السواء . وذلك ان بسط الفكرة العلمية او الفلسفية الدقيقة يقتضي الكاتب ، في كثير من الاحوال ، تطويل العبارة وايراد المعترضات موارد عديدة من الجمل

ويصطنع الفارابي في بعض الاوقات صيغاً وتعابير غير فصيحة كبنائه الفعل للمجهول مع

ايراد الشاهد مجروراً بحرف الجر او الاضافة . وهذا لا شك راجع الى دراساته في اللغات الاجنبية وتأثره باساليبها

وقد كلف الفارابي نفسه فوق وسعها في محاولة التوفيق بين الفلسفة والقرآن من جهة وبين افلاطون وارسطو من جهة اخرى ، فجاء كثير من كتبه مضطرباً متناقضاً وفي كثير من الاقتسار والتعقيد . يقول ما كدونالد : « في الحق ان النظام الذي تسلّمهُ الفارابي كان نظاماً معقداً . ولم يكن هذا النظام اقل تعقيداً من النظام الذي خلّفه هو . ان فلاسفة المسلمين ابتدأوا فلسفتهم بما يأتي : القرآن حق والفلسفة حق ، ولكن الحق واحد « لا يتجزّأ » ، فلذا وجب ان يتفق القرآن والفلسفة » . وقد كان ايمان الفارابي بافلاطون وارسطو ايماناً لاحدّ له مما جعله يقبل قضاياهما وفروضهما الفلسفية من دون مناقشة ولا حساب . وهذا في الحق من اكبر عيوب الفلسفة العربية ومن آكد الاسباب في وقوفها عند حد الاحتذاء والتقليد دون ان تتعدّى ذلك الاّ في القليل القليل . ودليلنا على ذلك من الفارابي ما أوردناه له من قوله انه قرأ كتاباً لارسطو مائة مرة وكتاباً آخر اربعين مرة وهو لم يزل في حاجة الى معاودة قراءتها ! ويروى مثل هذا القول عن ابن سينا ايضاً . وقد أخذ الفارابي على نفسه فضلاً عن شرح الفلسفة اليونانية — التوفيق بين فلسفتي افلاطون وارسطو ، وجاهد في ذلك جهاد الجبابرة حقّاً ، ولكنهُ في ذلك كله كان ادنى الى الخيبة منه الى النجاح . وذلك ان افلاطون غير ارسطو وارسطو غير افلاطون ، وكل سعي للتوفيق بين الاثنين هذا نصيبه . وقد كان الفارابي يلقب افلاطون وارسطو بالامامين ويقول ان اتباعهما اولى من اتباع امام واحد . وذلك — في رأيه — ان الاثنين اذا اتفقا على امر فحكمهما اصح واولى ان يُتّبع ، والشاهد الواحد يجوز الشك في شهادته ، اما الشاهدان المتفقان فلا يصح الشك في شهادتهما . بل لقد ذهب الفارابي الى ابعد من هذا المذهب في تقدير الفلسفة اليونانية ممثّلة في أئمّتها ، فكان يقول ان الفلاسفة القدماء هم على العموم انبياء يصلح اطلاق لفظ الامامة عليهم فيقال : الامام فيثاغورس والامام افلاطون والامام ارسطو كما يقال الامام علي والامام الحسن والامام الحسين . والكتب التي ألفها الفارابي في محاولة التوفيق بين آراء الفلاسفة القدماء عديدة ، منها كتاب التوفيق بين افلاطون وارسطو ، والوسيط بين ارسطو وجالينوس ، ومقاصد ارسطو وافلاطون وخلاقها . وجميع هذه الكتب تشهد على مقدار ما عاناهُ الفارابي في محاولة التوفيق بين آراء الفلاسفة اليونان . وهذا المسلك الوعر الذي سلكه الفارابي كان من اهم الاسباب في التناقض والاضطراب اللذين يكتنفان فلسفتهُ في كثير من المواطن (١)

(١) — سنعمد في مقال تال الى تحليل نواح من فلسفة الفارابي في بعض شؤون الاجتماع والنفس وفي فلسفة الكون والاخلاق